مداخلة

المنتديات كحالة حوارية لنقد المعرفة ومساءلتها

إنها شذرات مارَّة في النفق برسم الأمل في أن تعانق أفقاً

وسيم الكردي

(١)

إن هذه الحالة الجنينية (التي هي بالتأكيد أكثر مما قد تبدو عليه) الواعدة والمبشرة للمنتديات كانت قد انطلقت من فكرة الاختلاف والتنوع في المرجعية والمنطلق والمقاصد، والتقطها معلمون ومعلمات من أماكن مختلفة، وباتت حاضرة كفاعلية استكشافية، وكفعلٍ يتلمس مساراته وخطاه دون صيغة جاهزة مسبقاً. ولذلك، فإن جوهر وجودها أساساً قائم على التحرر من أي إطار آسر، معدٍّ سلفاً أو قابل لأن يعدَّ، يمكن للمؤسسة، مؤسستنا، أن تقع في غوايته، وبالتالي تنطلي الخديعة وتغدو المنتديات حرة في الظاهر وأسيرة في الباطن. إنه المناخ، المناخ الحر والمنفتح الذي يهب الداخلين فيه رغبة الاشتباك، ربما كلمة المناخ هي الكلمة التي تبدو أكثر قبولاً لديَّ لتوصيف "المدى" الذي تتحرك المنتديات في أفقه. لذلك ... استمسكوا بها، لأنه قد تغوينا فكرة أن نقوم "بإدارتكم وتحديد أولوياتكم وأجندات نقاشكم وفعلكم"، لذلك، فإن أول شرط لنجاح منتدياتكم هو أن تحذرونا، فالسلطة غواية لا يعرف حجم خطرها إلا الله!

(٢)

ربما في فكرة المنتديات ما يفضي إلى إعادة النظر في الحدود المختلقة، الحدود التي تم استمراؤها من قبل كثيرين، قد تكون هذه القيود واقعاً حقيقياً بمعنى ما إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية واحدة، إن حجم الشكاوى التي يرفعها دائماً كثير من المعلمين هي شكاوى صحيحة، شكاوى تقوم على أساس قوي، لكن المسألة ليست في صحتها أو عدم صحتها، فما الذي نبادر إليه في مواجهتها؟ ما الذي نفعله في مواجهة منهاج لنا فيه كثير من الآراء؟ ما الذي نفعله بصدد قناعاتنا بأن المدرسة جزء من المجتمع، وليست وراء أسوار تحجبها عنه؟ ما الذي نفعله اتجاه كتاب مدرسي لنا فيه مآخذ كثيرة؟ ما الذي نفعله اتجاه تسلط إداري؟ ما الذي نفعله أمام ما نشهده من حشو لأدمغة التلاميذ؟ ما الذي يمكننا فعله كي نقارب قضايا الحرية والانعتاق وإدراك ما يجري حولنا وفي العالم؟ ما الذي يمكن لنا أن نفعله إذا تأملنا فعلنا اليومي وأعدنا النظر فيه. "إنه واجب الآخرين!"، ولكن هؤلاء الآخرين ناسون أو متناسون، ونحن لسنا في الخزان كي نقرعه أو نستكين فيه، نحن لدينا أكثر من "قرع خزان" وحسب!

(٣)

إذا لم يكن المعلم ناقداً للمعرفة فكيف يمكن له أن يكون ملهماً لطلابه في أن يكونوا ناقدين لها؟! إن تربية أنفسنا على المساءلة، وعدم التسليم، هي التي تمنحنا القدرة على أن نكون "نحن"، وأن لا نكون "نسخاً كربونية" عن آخرين، فكلما اشتغلنا على إنتاج كلامنا الفردي في مدرسة هي أقرب إلى "الكرنفال" منها إلى "السجن"، سيكون لنا صوتنا الذي نجهر به، فيكوِّننا ونكوِّنه، ونسهم في إتاحة الفرصة للآخرين الذين هم نحن أيضاً، في إنتاج صوتهم الخاص. الكرنفال هو التنوع والتألق والمشاكسة والمشاغبة والانشداد والتراخي والتركيز والتشتت والدمج والبعثرة ... وليس ديمومة الانضباط والانتظام والبقاء على حالة واحدة، إنه الذي يمنحنا القدرة على النظر إلى مكاننا المدرسي والاجتماعي بصورة مغايرة، أتساءل دائماً من ذا الذي قرر لنا في كل المجتمعات الإنسانية هذا الشكل الراهن للمدرسة؟ لم لا، على الأقل، نعيد مساءلته بدلاً من التسليم به على أنه الحقيقة النهائية لشكل التعليم المدرسي. إن تساؤلاً من هذا النوع قد لا يقوض المدرسة ككيان مؤسسي اجتماعي الآن أو في المدى المنظور، ولكنه قد يفتح لنا أفقاً لنغير في هذا الثوب الذي كاد ينفتق، فلا يتيح لنا حركة أو فعلاً. إن ما هو دارج اجتماعياً ومقبول ومتواضع عليه ومألوف يشتغل على تكريس حضوره كما هو، والتغيير لا يروق له، "لا نستطيع أن نؤسس شيئاً على الرأي العام: فلا مناص من تقويضه أولاً. إنه أول عقبة ينبغي تخطيها، وربما لا يكفي، مثلاً، تصحيحه في نقاط خاصة، بالإبقاء على معرفة شائعة ظرفية بوصفها نوعاً من الأخلاق المؤقتة. إن العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها، حول قضايا لا نحسن صياغتها بوضوح. قبل كل شيء لا بد من معرفة طرح المسائل ... مهما قيل، في الحياة العلمية، فإن طرح المسائل لا ينطرح ذاتياً. ومن الواضح أن هذا المعنى للمسألة هو الذي يعطي للعقل العلمي الحقيقي طابعه. فبالنسبة إلى العقل العلمي تعتبر كل معرفة جواباً عن مسألة. فإذا لم يكن ثمة مسألة لا يمكن أن يكون هناك معرفة علمية. لا شيء معطى. كل شيء مبني" (باشلار، ١٩٩٦: ١٣ – ١٤)

(٤)

كيف يضع المعلم قيوداً على فعله؟ يفعل ذلك حينما لا يجد حولاً ولا قوة في التحاور مع المنهاج بل الاستكانة له، حينما يغدو الوضع الاقتصادي ساحقاً بدل أن يكون باعثاً ومحفزاً فيرتهن إليه، وحينما لا يجد ما يقوله لموجه، مع أنه مقتنع تماماً بما قام به من تجاوز واجتياز لما هو سائد ومألوف، فتراءى له في عيون تلامذته بريق الدهشة والرغبة والمتعة والمعرفة، فمن أجل هذا البريق لا يحق له أن يكبح جماح خياله، وعليه أن لا يرعوي ... وأن لا يتضاءل. وحينما لا تشتبك رؤيته مع رؤى أخرى، ويظل حبيس دفتر التحضير الذي يستنسخه عاماً بعد الآخر، أو يطرزه على منوال واحد فرضه عرف ما، وحينما لا يرى في نفسه سوى دور واحد وطريقة واحدة ونمط أوحد.

(٥)

حينما تبحث الذات عن حضورها وألقها يتكشَّف لها، أن لها دورَها الإنساني العميق، فليس الأمر متعلقاً بما تمنحني إياه "المؤسسة"، وبالتالي لا أمنحها إلا بمقدار ما تمنحني! ما لدي متعلقٌ بي، وبما أريده لذاتي، إذن، فأنا لست برغياً في عجلة النظام التربوي، ولست دمية يحركها آخرون، لديَّ ما أقوله ولديَّ ما أعمله، الالتزام المهني لا يعني قبولي بكل شيء، أنا لست معلماً "وسيطاً" أو قاطرة ناقلة لما في "المنهاج" إلى "الطالب"، أنا المعلم محاوراً. نعم، المعلم محاوراً ومشتبكاً؛ إذن لينفتح الحوار الذي أبتغيه، أو بصورة أدق، لأبادر إلى فتح الحوار الدائم والمستمر والمتدفق، وعندها يمكنني الاشتباك مع الآخرين ومع أفكارهم ومع انفعالاتهم أيضاً داخل المدرسة وخارجها. دعوني أستعير من الروائي أمين معلوف: "كم من الأشخاص إذا اعتراهم الدوار، يقلعون عن فهم ما يجري؟ كم من الأشخاص يعدلون عن الإسهام في الحضارة العالمية

الناشئة لأنهم قرروا نهائياً بأن العالم الذي يحيط بهم غامض وعدائي ومفترس ومسعور وشيطاني؟ كم من الأشخاص ينزعون للتقوقع في موقع الضحايا: ضحايا أمريكا، ضحايا الغرب، ضحايا الرأسمالية أو الليبرالية، ضحايا التكنولوجيا الحديثة، ضحايا وسائل الإعلام، ضحايا التغيير ... فالتقوقع في ذهنية ضحية الاعتداء أكثر تدميراً للضحية من الاعتداء نفسه، وهذا صحيح بالنسبة إلى المجتمعات والأفراد على حد سواء، فيتقوقع الناس ويتمترسون ويحتمون من كل شيء، ويحبسون أنفسهم، ويجترون أحقادهم، ويكفون عن الحث والاستكشاف، ويراوحون مكانهم، ويخبئون المستقبل والحاضر والآخرين" (معلوف، ١٩٩٩: ١٧٣).

(٦)

إن المنتديات ليست فعلاً تربوياً خالصاً، بل هي فعل اجتماعي، وإذا كانت كذلك، فهذا يعني بأنها ستشتبك مع متطلبات الاجتماعي، المنتدى فعل اجتماعي وسياسي وأخلاقي بامتياز، ولكن علينا أن لا نسقط في شباك الخديعة مرة أخرى، ونقع في إسار آخر، ألا وهو الاعتقاد بدورنا كحماة لأعراف المجتمع وتقاليده أو الاعتقاد بدور تبشيري قد يفضي إلى الاعتقاد بأننا المرجعية المعرفية والعلمية والأخلاقية "المخلصة" و"النهائية" لما يتطلع إليه تلاميذنا، وبالتالي فإننا نحن، ونحن فقط، من يمايز بين الصح والغلط، أو نحن الذين نعرف مسبقاً ما الذي يحتاجه تلاميذنا، إن دوراً نقدياً يلوح في الأفق هو غاية لنا، فلسنا مجرد وسطاء، أو ناقلي معرفة، أو منفذي سياسات، أو مطبقي برامج، "إننا نعرف مقابل معرفة سابقة، بتقويض معارف سيئة الصنع، وبتخطي ما يعوق عملية الروحنة في العقل بالذات" (باشلار: ١٩٩٦: ١٣).

(٧)

إن التوجه لإنشاء المنتديات يجب أن لا يشي بأن علينا التوجه إلى توحيد الرؤية وتوحيد اتجاهها، وبالتالي بناء إستراتيجية ذات فلسفة محددة وتتغيا مقاصد بعينها. ما أريد قوله هنا إن الإستراتيجية قد تعني انتظاماً شمولياً ثقافياً واحداً موحداً، وقد تعني بالمقابل تصورات الجماعة عن نفسها ضمن إستراتيجية لا توحد الرؤية، بل تبني توجهات تساعد كل الرؤى في أن تجد حيزاً لها ضمن الجماعة. فما الذي يَفْرقُ بين المعنيين؟ إن هذه الإشكالية متعلقة ابتداء بسؤال الحرية؛ فما من شك أن بحثاً في "إستراتيجية" شاملة وعامة، مهما كان نوعها، ومهما تراءى لنا إخلاصها أو استنارتها، مرهون تماماً بعلاقات القوة في بعدها الاجتماعي والسياسي، أما بعدها الأخلاقي فإن حضوره سيغدو ذا أهمية فقط إذا ما كانت الإستراتيجية استراتيجيات تتفاعل فيما بينها؛ تتخالف وتتآلف، تلتقي وتتباعد، في سياق حواري مجتمعي دائم ومستمر. فهي ليست أمراً متصلاً بحسن النوايا أو براعة التخطيط أو نظافة الفكرة أو ألقها ... لأن قانون الانتقاء والإقصاء ليس قانوناً محكوماً بالرغبة الذاتية الخالصة، بل محكوم بعلاقات مجتمعية معقدة.

(٨)

إذا كان سؤال الحرية هو السؤال الجوهري، وإذا كان سؤال الفعل المقاوم تاريخياً هو سؤال في الحرية، فإن "مأسسة" المنتديات يجب أن تنبع من هذه الخاصية، فقد لا يكون مناسباً مثلاً أن يكون فضاء المقاومة السياسية مفتوحاً على آخره، بينما الفضاء الاجتماعي التربوي منغلق تماماً، وهنا سيبدو أن فعلاً اجتماعياً يتحرك ضمن ضرورات تحوله واشتراطات وجوده الإنساني، بينما الفعل الآخر يتحرك في ضوء تجارب أخرى قريبة منا في الجغرافيا وفي التاريخ قد انبنت فيها دولة رسّخت مؤسساتها، وعلى رأسها التربوية، للجم فعل الحرية أو احتوائه.

(٩)

ما علاقة ذلك بالمؤسسة التربوية في فلسطين؟ إن المنتديات ليست صيغة مؤسسية بما هو معروف عن المؤسسات في بلادنا؛ على الأقل حين رأينا، حينما بادرنا، بأنها فضاء للحرية، وفضاء الحرية يتيح مناخاً لفعل مختلف ومغاير ومتنوع، لا يقصي أحداً، ولا يسير على هدى شعاع ضوء واحد وحيد أيضاً.

(١٠)

لننطلق من مسألة تبدو في غاية البداهة لكنها في غاية التعقيد في بلادنا؛ إن حقاً اجتماعياً مطلقاً في الفعل التربوي ليس موجوداً في أي من المجتمعات الإنسانية، ولا يمكن أن يكون منوجداً أيضاً، أما الحق الاجتماعي الفعلي فهو مرهون بهامش الحرية في مجتمع ما، وهذا الهامش يجد حضوره في ضوء أمرين، الأول: الإرث التاريخي للمجتمع فيما يخص مجال الحرية وتفاعل هذا الإرث المتكرس مع احتياجات الزمن الذي نعيش فيه. والثاني: في التشريعات ومدى تكفلها بحرية الأفراد أو التجمعات أو المجموعات، وما ينبثق عن ذلك من إمكانات الفعل الحر والمبادرة الاختيارية لديهم.

(١١)

إن المجتمع الفلسطيني هو مجتمع يتحرك في فعله الاجتماعي، بما فيه الثقافي، نحو الانعتاق، ونحو الحرية، ولذلك فإن أي فعل مؤسسي إنساني يقتضي التحرك في فضاء هذين الأفقين أساساً. وبالتالي، فإن فعل كل من "المؤسسة الرسمية" و"الملتقيات الأهلية" سيشتغل ضمنهما. فالعلاقة قد تكون تكاملية في مجال، وقد تكون تعارضية في مجال آخر، وقد تكون توافقية في مسار، وتناقضية في مسار آخر ... ولذلك، فإن الاشتغال على "تربية" واحدة لا يبدو ممكناً، وليس ضرورياً أيضاً، بل قد يبدو الضروري هو التنوع والاختلاف والاشتغال على المغايرة دائماً، وأن لا نكون مرهونين لثقافة واحدة أو منظومة فكرية أحادية.

(١٢)

لأن الأحاديةَ الواحديةَ المرجعيةِ ستغدو أيديولوجية جاهزة، سواء أكانت إسلاماوية أم ماركسوية أم علماناوية أم قومانية ... الخ، وإسراراً لا يقيدنا فحسب، بل يحشر تلامذتنا أيضاً في أضيق الحدود، وربما في سجون سيحترقون كثيراً ليتخلصوا منها حين يحين لهم وقت الخلاص ... هذا إذا ما حان. لنعد إلى علي بن أبي طالب ونقول، على الرغم من أنه قول تكرر كثيراً فبات بلا مذاق، لنقله "علموا أولادكم بغير علمكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم"، ولنعدْ له مذاقه.

(١٣)

فما الذي يمكن للمنتديات أن تفعله في هذا السياق؟ أن تتيح مناخ الفعل في تلك المناطق بتشجيع المبادرات الفردية ومبادرات المجموعات ليس من خلال حقنها بماهية المبادرات، بل بتوفير ما يحيط بالمبادرات من ضرورات لحياتها، وهذا ما نجرب فعله، على الرغم مما فيه من محاذير تحيط بجوهر فكرة الحرية نفسها.

(١٤)

وهنا، وبهذا المعنى، فإن المنتدى، بالمعنى الاجتماعي، يغدو ضرورياً لإعادة إنتاج علاقات القوة وإنتاج حوار متجدد ودائم، والتأثير على الفعل التربوي في سياقه الثقافي والاجتماعي. فما الذي نود الاشتباك معه ومحاورته؟ إنه ما مضى، ولكن ما مضى ليس ماضياً انقضى وانتهى، إنه عالق فينا، وفيه ما نود استبقاءه، وفيه ما نود التخلص منه كالعوالق التي نرج أنفسنا كثيراً كي نخلص منها" ... لأن التوصل إلى العلم معناه، روحانياً، التجدد والقبول بطفرة مفاجئة يفترض بها أن تناقض ماضياً" (باشلار، ١٩٩٦: ١٣).

(١٥)

ربما يكفي لنا أن "نربي الأمل" كما يقول درويش، ولكن أن "نربي الأمل" بالتأكيد هو أكثر كثيراً مما يمكن لنا أن نتخيل.

المراجع:

- باشلار، غاستون (١٩٩٦) **تكوين العقل العلمي**، عرَّبه: د. خليل أحمد خليل، ط ٥ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- معلوف، أمين (١٩٩٩). **الهويات القاتلة**، ت: نهلة بيضون، ط ١ دمشق: دار الجندي للطباعة والنشر والتوزيع.